

شخصية القديس
أثناسيوس الرسولي
والجو الكنسي

١٥ مايو ١٩٩٨
عيد البابا أثناسيوس الرسولي

القمص تادرس يعقوب ملطي
كنيسة الشهيد مار جرجس والقديس أنبا أنطونيوس
أتاوا - كندا



عندما أمدح أثناسيوس أمدح الفضيلة،
أذكر كل فضيلة عندما أشير إلى ذاك الذي اقتنى كل الفضائل.
كان عمود الكنيسة الحقيقي.
حياته وسلوكه يمثلان نظامًا للأساقفة.
وتعليمه يمثل قانون الإيمان الأرثوذكسي¹.

القديس غريغوريوس النزينزي

¹ *Oratione*, 21.

عناية إلهية!

عناية إلهية عبر الأجيال

كم اشتهدت نفسي أن أكتب عن شخصية القديس أثناسيوس الرسولي، ففي كل مرة أود الكتابة عنه تتجلى أمامي عناية الله الفائقة التي تهتم بكنيسته العزيزة عليه جداً، كما تهتم بكل إنسان، فتدبر كل الأمور لأجل بنيانه الدائم ومجده الأبدي.

لقد عرف عدو الخير منذ بدء خلقه الإنسان أن يصوب سهمه القاتل نحو الأبوين الأولين، فيفسد طبيعة كل بشر، لكن الله من جانبه كان قد خطط الخلاص ليدخل بالبشرية إلى أمجادٍ فائقة، لا إلى جنة عدن بل إلى حضن الله نفسه، وينال شركة المجد الأبدي.

وحينما أثار عدو الخير فرعون ليدل شعب الله كان الله قد أعد موسى ليحرر شعبه بيد إلهية قوية وذراعٍ رفيعة، فينطلق بهم نحو أرض الموعد.

وحينما ظن هامان أنه سيصلب مردخاي النقي، أعد الله إستير الملكة اليتيمة، ليصلب هامان على ذات الصليب بينما يمجّد الله مردخاي وكل شعبه.

أراد بيلاجيوس أن يحطم الإيمان مدعيًا أن الإنسان بإرادته قادر على الخلاص، مستهيناً بنعمة الله المجانية، وكان الله قد أعد القديس أغسطينوس ليسحب قلوب المؤمنين نحو هذه النعمة الفائقة.

لقد بذل نسطور وأتباعه كل الجهد لجعل من السيد المسيح شخصين ذوي طبيعتين، فأعد الله القديس كيرلس الكبير ليدافع عن وحدة شخص السيد المسيح وأقنومية الاتحاد بين اللاهوت والناسوت.

وفي آخر الأيام سيكرس عدو الخير كل طاقاته ليحطم الإيمان خلال "ضد المسيح"، وسيرسل الله النبيين إيليا وأخنوخ ليشهدا للحق، ويسندا المؤمنين.

هكذا عندما انتهى الحديث عن القديس أثناسيوس الرسولي أراه عطية عناية الله للكنيسة في وقت كاد أريوس أن يخدع العالم المسيحي منكرًا لاهوت السيد المسيح، ومساواته مع الآب في ذات الجوهر الإلهي الواحد.

أبوة القديس أثناسيوس

وقف كثيرون من قادة الكنيسة في الشرق والغرب يحيون قديسنا العظيم البابا أثناسيوس الرسولي، كأعظم مدافع عن لاهوت السيد المسيح. لقد أعده الله ليقف أمام الأريوسية، فيحفظ إيمان الكنيسة، ويسلمه للجبل التالي له، حتى يومنا هذا.

كنت أجد عذوبة في كتاباتي عن القديس أثناسيوس وموقفه اللاهوتي. لكن ما كان يشغل قلبي أن قليلين يبحثون عن شخصيته كأبٍ وراعٍ يتسع قلبه بالحب الأبدي، مشتهدًا أن يتمتع العالم كله بخبرة عمل الثالوث القدوس فيهم، ويذوقون ذات العذوبة التي ملأت كل كيانه الداخلي.

وإنني إذ دُعيت للحديث عن شخصيته، قضيت فترة الاحتفال يلتهب قلبي شوقًا أن يتعرف الكل على ما وراء هذه الشخصية لكي يتلامسوا مع غنى نعمة الله الفائقة ويحملوا روحه الناري.

كثيرون انشغلوا بلاهوتيات القديس أثناسيوس وكتبوا مئات المجلدات عنها، لكنني أود هنا أن أتحدث عن اللامسات الخفية التي لعبت دورًا في حياته، والتي ربما لا يفكر فيها كثيرون.

الرب قادر أن يهيني مع كل محبوبي الرب أن نتمتع بما تمتع به قديسنا، فنسلك معه في ذات موكب ربنا يسوع المسيح، ويكون

له سلسلة من النصرات التي لا تتقطع.

- ١ - الطفل أثناسيوس وأبوة البابا الكسندروس.
- ٢ - الطفل أثناسيوس والجو العائلي الكنسي.
- ٣ - الشاب أثناسيوس والشهداء.
- ٤ - أثناسيوس غاسل أقدام العظيم أنطونيوس.
- ٥ - أثناسيوس وتفاعله مع الفكر اللاهوتي السكندري.
 - نظرتة اللاهوتية الخلاصية.
 - نظرتة الكتابية.
 - نظرتة الكنسية المسكونية.
 - مفهومه للكنيسة كحياة سماوية.
 - نظرتة إلى وحدة الحياة الجديدة.

الطفل أثناسيوس وأبوة البابا الكسندروس^١

إذ كان البابا الكسندروس يتطلع من نافذة البطريركية بالإسكندرية شد انتباهه مجموعة من الأطفال يلعبون على شاطئ البحر. وكان أحدهم في شئ من الجدية يقوم بتغطيس الأطفال طفلاً طفلاً ثلاث مرات، مارسا طقس العماد بدقة. لم يقف البابا متفرجاً لما يفعله هذا الطفل الصغير، لكنه كأبٍ مملوء حباً نحو أولاده، يشناق أن ينمي مواهب كل أولاده استدعى الأطفال.

في البداية اضطرب الأطفال قائلين في أنفسهم: "لماذا يدعوننا أبونا البابا البطريرك؟ أعله يوبخنا لأننا نمارس طقس العماد على شاطئ البحر؟ أم ماذا؟" لكن إذ التقى البابا بالأطفال ببشاشة وحب فرحوا جداً، وشعروا بأبوة أبيهم الحانية.

سألهم عما كانوا يفعلون، فخافوا في البداية لكنهم إذ اطمأنوا لنظرات البابا وسلوكه نحوهم اعترفوا بأن الطفل أثناسيوس قد أعجب بما يفعله البابا عند تعميده الأطفال، وأنه قام بدور أسقفٍ يعمد الأطفال.

فرح البابا بالأطفال، خاصة بالطفل أثناسيوس، فاستدعى والدته وطلب منها أن تهتم بتربيته، لأنه سيكون له دور عظيم في الكنيسة. أما هي فسألته أن يقبله تلميذاً له.

كان للمسات الحنو والاهتمام التي قدمها البابا الكسندروس دورها في حياة القديس أثناسيوس كما في سلوكه بل وفي أفكاره اللاهوتية.

ما تمتع به القديس من أبوة حانية فتح عينيه على أبواب السماء ليرى الله الحاني نحو كل البشرية، الذي يشتهي خلاص كل بشر، فصار لاهوت البابا أثناسيوس يدور كله حول "خلاص الإنسان".

مزج هذا الحنو اللاهوتيات عند القديس أثناسيوس بالعمل الأبوي الرعوي، فلا فصل بين اللاهوت والرعاية. وأعطى هذا الحنو اللاهوتيات لمسات عذوية فائقة.

أقول أن العالم يحتاج إلى التمتع بالأبوة الكنسية كانعكاس لأبوة الله، حتى يختبر اللاهوتيات لا كأفكار فلسفية جافة، بل كخبرة حب إلهي فائق.

ما تعانیه الكنيسة في العالم بسبب عزل اللاهوت عن الحب الأبوي، فصار اللاهوت فلسفة فكرية جافة، وتسايق على درجات علمية، وصارت الخدمة عملاً اجتماعياً بحثاً بلا فكر لاهوتي، وهكذا فقد اللاهوت كما فقدت الخدمة كيانها وطعمها بسبب انعزالها عن بعضها عزلاً يكاد يكون تاماً!



هب لي يا رب أبوة صادقة،

فأحتضن في أعماقي كل طفل.

حقاً أن أصغر طفل هو أثمن من العالم كله.

لينتني لا أحتقر طفلاً ما،

بل أراك عاملاً في الكل.

¹ Ruffinus: H.E 1:14.

أنت تقيم من الصغار قادة عظماء،
وكلاء عنك، وسفراء عن سمواتك.



الطفل أثناسيوس والجو العائلي الكنسي

لسنا نعرف شيئاً عن عائلة الطفل أثناسيوس، لكن نعرف شيئاً واحداً، أنه إذ استدعى الأب البطريرك الكسندروس والدته وأخبرها بما رآه، كيف كان ابنها حتى في لعبه مع الأطفال يقوم في شيء من الجدية بدور أسقف يعمد، لم تستخف بالأمر. طالبها الأب أن تهتم به ليكون قائداً حياً يخدم مسيحه، وهي بدورها بفرح وسرور سألته أن يتلمذه للسيد المسيح!

في القديم طُلب ألا يقدم الكاهن للرب ذبيحة بها لوم، والأم التي نجهل كل شيء عنها عدا قلبها الملتهب حباً، تقدم ابنها ذبيحة حب لله، تقدمه ليتلمذ للرب نفسه فيكون بلا عيب، فيقبله الرب من يديها رائحة رضا.



لنتحول كل بيوتنا إلى كنيسة مقدسة،
ولنقدم حياتنا وحياة أولادنا ذبيحة حب.
أقبلها يا أيها الذبيح الفريد.
بك يصير أبنائنا بلا لوم،
يحملون برك يا أيها القدوس وحده،
فتستمر حياتهم امتداداً لعملك الفائق.



الشباب أثناسيوس والشهداء

ولد القديس أثناسيوس حوالي عام ٢٩٧م، وعاصر فترة الاستشهاد العنيفة (٣٠٣ - ٣١١ م)، حيث ان في السابعة من عمره حتى الخامسة عشر، وقد عرف كثيرين من شهداء الإسكندرية ومعتريها. تعلم منهم الإيمان الأرثوذكسي والحب الشديد للكتاب المقدس. حقا لم يدخل معهم حلبة الاستشهاد، لكن قلبه كان ملتهبا بالحب الإلهي، يواجه كل صراع من أجل المسيح^١.

تأثر القديس أثناسيوس جدًا بالشهداء الذين رأهم في صبوته، فقد أدرك أن نصرتهم على الموت إنما هي خلال تقواهم في المسيح يسوع، أو خلال اتحادهم مع الآب في ابنه بالروح القدس. وإذ أراد اقتفاء أثرهم اشتاق أن يقدم حياته ذبيحة يومية لحساب إيمان الكنيسة. بهذه الروح صار قائدًا حقًا سلطانه لا يُقاوم^٢. لقد آمن أنه إنما يعمل عمل المسيح، لذا فالنصرة النهائية قادمة من عند الرب، لذا لم يترك وسيلة لبلوغها. إنه لم ييأس قط في أظلم ساعات الصراع.

سجل لنا البابا أثناسيوس نظرتة لمعلمه كشهيد بدون سفك دم، قائلاً: [عندما توقف الاستشهاد تمامًا، واستشهد الطوباوي الذكر الأسقف بطرس، ترك (الإسكندرية)، وعاد إلى قلاية توحدته، فكان شهيدًا بالنية كل يوم، يحارب في معارك الإيمان على الدوام، ممارسًا الحياة النسكية القاسية بغيره].



¹ The Author: *The Coptic Orthodox Church as a Church of Erudition and Theology*, 1986, p.72.

² Tixeront - Raemers: *Handbook of Patrology*, p. 153.

أثناسيوس غاسل أقدام العظيم أنطونيوس

تحول قسطنطين الكبير إلى الإيمان المسيحي ليكون أول إمبراطور مسيحي في العالم، يبذل كل جهده من أجل تحويل هياكل الأوثان إلى كنائس، ومساندة الكنيسة. لكنه إذ فتح أبواب قصره للأساقفة وبعض الكهنة انسحبت قلوب الكثيرين إلى القصر الإمبراطوري. لم يترك الرب كنيسته تتسحب إلى قصور العالم وأمجاهه فأعد العظيم أنبا أنطونيوس الذي سحب قلب الكنيسة إلى البرية، لكي يدخل كل مؤمن إلى أعماقه، ويتلامس مع ملكوت السموات القائم فيه. من بين هؤلاء المؤمنين كان أثناسيوس الذي وإن كان لم يلتحق بالحياة الرهبانية لكنه تتلمذ على يدي العظيم أنبا أنطونيوس.

لست أقول أن لمسات القديس أنبا أنطونيوس قد ظهرت في سلوك البابا أثناسيوس ولاهوتياته فحسب، بل يمكننا القول بأنها بالروح القدس شكلت أعماقه أيضاً.

إن كان البابا أثناسيوس قد سجل لنا كتابه المشهور *Vita Antonii* حياة أنطونيوس، فإنه في الحقيقة نقش سيرة معلمه وحياته في قلبه وخلال حياته وسلوكياته وأفكاره.

وإنني أرجو أن أقدم هنا أمثلة قليلة لعمل الله الفائق في حياة البابا أثناسيوس خلال تأثره بأبيه الروحي الأنبا أنطونيوس.

التأله والحياة الرهبانية

ظن البعض أن القديس أنبا أنطونيوس أب الأسرة الرهبانية قد استخف بالجسد وتجاهله، وأن الرهبنة المصرية كان لها أثرها على الفكر اللاهوتي السكندري، الذي ركز على التأله.

سحب "التأله" قلب مدرسة الإسكندرية، حيث يرى المؤمن حب الله العجيب الذي يشكل أعماق الإنسان ليحمل صورة خالقه، ويقيم منه شريكاً في الطبيعة الإلهية... لا يقف عند الأعماق بل ويرى في الجسد ذاته كأنه يتحول تدريجياً إلى الطبيعة المجيدة التي يتمتع بها في يوم الرب العظيم. تصير حياة المؤمن أشبه برحلة يومية فيها ينطلق بكل كيانه نحو السماء، جاذباً اخوته معه ليختبروا معه عربون السماء.

إن كانت الرهبنة المصرية قد حولت البراري والقفار إلى فراديس، والبشر إلى ملائكة، فإن القديس أثناسيوس حتى في حواراته اللاهوتية، كانت غايته أن يحول كيان الإنسان إلى سماء جديدة متهللة بالله مصدر فرحها ومجدها.

من كلماته: [نتأله، لا بشركتنا لجسد إنسان ما، بل بقبولنا جسد الكلمة نفسه¹].

[صار إنساناً لكي نصير نحن آلهة²].

الأنبا أنطونيوس وروح الغلبة

الخط الواضح في كتاب "حياة أنطونيوس" الذي سجله تلميذه البابا أثناسيوس هو صراع القديس مع الشياطين، موضحاً ما يحمله المؤمن الحقيقي من روح الغلبة والنصرة حتى على الشياطين والأرواح النجسة.

كان هذا المعلم العجيب قائداً خفياً لتلميذه الذي عاش أغلب حياته في سلسلة لا تتقطع من الصراع، لم يعرف فترات السلام

¹ Ep. Ad Maximum, 61:2.

² De Incarnatione, 54:3.

الخارجي في خدمته إلا القليل النادر. وجاءت رسائله الفصحية السنوية تكشف لا عن نفس مرة من أجل مقاومة الكثيرين والمستمرة له، بل عن اعتزاز حي بالجهاد المستمر مع رجاء صادق في التمتع بنصرات لا تنقطع.

قيل له: "العالم كله ضدك يا أثناسيوس!" وكانت إجابته الثقائية النابعة من خبراته اليومية، "وأنا ضد العالم". لم يكن هذا عن كبرياءٍ أو تشامخٍ، وإنما عن يقين في إمكانات الله العاملة فيه.

آمن القديس أثناسيوس أنه مختفي في المسيح، وما يمارسه إنما باسم المسيح ولحسابه، يعمل عمل المسيح، لهذا لم يدخل اليأس قط إلى قلبه، ولم يحمل روح الفشل بل روح الغلبة والنصرة.

دُبرت مؤامرات كثيرة ضده، لكنه آمن بذاك الذي ينقذ العصفور من فخ الصيادين، في يقين بروح الغلبة بلا خوف. إذ خطط الأريوسيون لتحطيمه انطلق إلى القسطنطينية، وفي شجاعة انطلق إلى حيث مركبة الإمبراطور وأمسك بلجام الفرس. ارتبك الكل قائلين: "من هو هذا المتجاسر ليوقف المركبة الإمبراطورية؟" وإذ عرف قسطنطين شخصه أعجب بشجاعته ودعا له ليجلس معه في المركبة ويتحقق مما جاء من أجله.

لقد قضى أغلب حياته في ضيق خارجي دون أن يفقد سلامه وإيمانه بنواله روح النصر.

لقد دامت رئاسته ٤٦ عاماً، قضى منها ١٧ عاماً في النفي:

١ - في عهد قسطنطين (٣٣٥ - ٣٣٧ م) في تريف.

ب - في عهد قسطنطيوس (٣٣٩ - ٣٤٦ م) حيث زار روما.

ج - في عهد قسطنطيوس (٣٥٦ - ٣٦٢ م) حيث عاش في براري مصر.

د - في عهد يوليانيوس (٣٦٢ - ٣٦٣ م) حيث عاش في براري مصر.

هـ - في عهد فالنس (٣٦٥ - ٣٦٦ م) حيث عاش في براري مصر.

أتهم في مجمع صور عام ٣٣٥ م بقتل الأسقف الميلاتي أرسانيوس، وانتهاكه بتولية عذراء، وتحطيم كأس الأفخارستيا الذي كان يستخدمه أسخيراتس وظهر بطلان هذه الاتهامات.

الأنبا أنطونيوس وروح الفرخ

يقول القديس أنبا أنطونيوس انه كما يحتاج الجسد إلى طعام يتقوى به، هكذا تحتاج النفس إلى الفرخ غذاء لها. لقد اتسمت شخصية الأنبا أنطونيوس بروح الفرخ الدائم، الأمر الذي أدهش كثير من المؤمنين والفلاسفة.

جاء إليه جماعة من المؤمنين وكانوا يسألونه وهو يجيب، وكان أحدهم صامتاً. تعجب منه القديس أنبا أنطونيوس فسأله عن صمته مع انه تكبد متاعب كثيرة لكي يأتي أثليه. أجابه الرجل: "رأيت يا أبي وجهك فعرفت الإجابة على كل أسئلتني". هكذا رأى في بشاشة وجهه المستمرة أيقونة السماء المتهللة، فوجد أجابة على كل أسئلته خلال الفرخ الذي يمارسه الأب أنبا أنطونيوس في المسيح يسوع.

جاء مجموعة من الفلاسفة يتعرفون عليه، وقد ظنوا أنهم يجدون رجلاً كهلاً تتسم ملامح وجهه بالحزم الشديد والجدية بلا ابتسامة كعادة الفلاسفة، خاصة وأن يسكن في البرية الموحشة لعشرات السنوات. وكانت المفاجأة أنهم وجدوه شيخاً يحمل روح الشباب، دائم البشاشة، ومتهللاً في أعماقه. سألوه عن سر فرحه مع أنه يسكن في مغارة مجردة من كل شئ حتى من الكتب ليتعزى بها، ولا يوجد حتى دواء أو طبيب حوله. أما هو فقال لهم أنه لا يعيش في مغارته وحده، إنما يسكن مع مسيحه الذي يملأ كل جوانب حياته فرحاً وتعزية.

كان لبشاشة وجه القديس أنبا أنطونيوس وهو في ساحة الصراع مع عدو الخير أثرها العجيب على تلميذه القديس أنثاسيوس، إذ كتب عن معلمه:

[كانت نفسه متحررة من كل اضطراب. وكان مظهره الخارجي هادئاً. من فرح نفسه كان يحمل ملامح متهللة، ومن حركات جسمه يمكن إدراك حال نفسه. كما هو مكتوب: "القلب الفرحان يجعل الوجه طلقاً، ويحزن القلب تتسحق الملامح" (أم ١٥: ١٣)...]

كان أنطونيوس هذا معروفاً، فإنه لم يضطرب قط، إذ كانت نفسه في سلامٍ ولم يتحطم قط، لأن عقله كان فرحاً^١.

انعكس ذلك على شخصية تلميذه البابا أنثاسيوس الرسولي، فنراه في وسط ضيقاته لا يكتب عن منفاه ولا عن القبر الذي اختفي فيه، ولا عن حرمانه من التقائه بشعبه بالإسكندرية، إنما سجل لنا وسط آلامه عن نظريته لحياته كعيدٍ دائمٍ. يقول أن عيدنا هو المسيح.

إنما وُجد، حتى إن كان مختفياً في مقبرة، يكن كمن يحتفل بعيد سماوي لا ينقطع، حيث يتجلى شخص المسيح القائم من الأموات في أعماقه.

بروح الفرح الدائم لا يتوقف عن ممارسة عمل المسيح، جاذباً بصلواته ورسائله الكثيرين ليشاركوه احتفاله الدائم بالعيد.

في إحدى رسائله الفصحية يقول:

[بهجة عيدنا يا اخوتي هي دائماً بين أيدينا. ولا يفشل ممن يشاق إلى الاحتفال به من اقتناء البهجة. لأن الكلمة (اللوعوس) هو قريب منا، هذا الذي هو كل شيء لنفعلنا. لقد وعدنا ربنا يسوع المسيح أن تكون سكناه دائماً معنا، إذ صرخ: "ها أنا معكم كل أيام العالم" (مت ٢٨: ٢٠).

إنه الراعي ورئيس الكهنة والطريق والباب، وكل شيء في ذات الوقت بالنسبة لنا، لهذا يظهر نفسه أنه العيد واليوم المقدس كقول الرسول الطوباوي: "فصحنا المسيح قد دُبِح" (١كو ٥: ٧)^٢.

الأنبا أنطونيوس وقلب الإمبراطور

تهلل الرهبان إذ سمعوا أن أول إمبراطور مسيحي - قسطنطين - قد بعث برسالة إلى أبيهم أنبا أنطونيوس، وجاءوا يسألونه متى يجيب على رسالته. أما هو فلم يكن منشغلاً بالرسالة، بل قال لهم إنه سيجيب عليها عندما يجد وقتاً مناسباً لذلك. عبرت الأيام ولم يجب أنبا أنطونيوس... وأخيراً إذ ألح عليه الرهبان ليجيب على الإمبراطور من أجل أعماله العظيمة التي صنعها مع الكنيسة وقادتها، أجابهم أنه مشغول بقراءة رسالة الله - الكتاب المقدس - وعندما ينتهي من الإجابة عليها سيكتب للإمبراطور.

هكذا تسلم البابا أنثاسيوس من معلمه هذه الروح، انه لا يهتم بان يكون له موضع في قلب الإمبراطور بل في حضن الله. لم يشته البابا أنثاسيوس مجداً زمنياً، ولا طلب أن تفتح أبواب القصر الإمبراطوري أمامه، لكنه كان مهتماً بخلاص نفسه وخلص أولاده الروحيين.

الأنبا أنطونيوس والبصيرة الداخلية

لم يلتحق القديس أنبا أنطونيوس بمدرسة الإسكندرية اللاهوتية، لكنه كان متفاعلاً معها، وكانت هي متفاعلة معه.

زار القديس أنبا أنطونيوس عميد المدرسة في أيامه القديس ديديموس الضرير أكثر من مرة، وكانا يلتقيان معا حول مائدة الفكر اللاهوتي الروحي، أو حول مائدة الحياة السماوية الحية.

¹ Vita Antonii, 67.

² Paschal Letters 14:1.

سأل القديس أنطونيوس القديس ديدموس إن كان يتألم بسبب فقدانه بصره، وإذ لم يجبه الأخير كرر السؤال للمرة الثانية تم الثالثة. فأظهر القديس حزنه على فقدانه البصر، أما القديس أنبا أنطونيوس فقال له: "إنني اندهش أن رجلاً حكيماً يحزن على فقدان ما يشترك فيه النمل والذباب والحشرات ولا يبتهج بالأحرى (بالبصيرة الداخلية) التي لا يتأهل لها إلا القديسون والرسول¹.

بهذه البصيرة التي يعتز بها الأنبا أنطونيوس تطلع تلميذه إلى اللاهوتيات ليس كأفكار فلسفية للحوار، بل كأدراك حيٍّ للمعرفة، وتلامس مع الحق. لهذا لم ينشغل البابا أثناسيوس بالتعبيرات اللاهوتيات Theological Terminology، إنما اهتم بالمعنى².

الأنبا أنطونيوس وانفتاح قلبه

لم يمارس أنبا أنطونيوس الرهبنة كهروب من الناس، بل كانفتح القلب على الله محب البشر، فبعد حوالي عشرين عاماً من العزلة التامة، انفتحت مغارته وشهد الكل انفتاح قلبه بالحب نحو كل البشر، فلم يلتق فقط بالمشتاقين للحياة الرهبانية، بل وبالفلاسفة والحكام، لهذا قال له القديس هيلاريون من فلسطين: "سلام لك يا عمود النور، المضي للعالم".

هذا هو قلب راهب متوحد يشتهي خلاص الجميع، حتى الفلاسفة الوثنيين، كم بالأكثر حمل تلميذه البابا البطريرك روح الحب والشهادة لإنجيل المسيح أمام الجميع. لقد تعلم من معلمه أن يسلم قلبه بين يدي روح الله القدوس الناري، الذي يلهب النفس بالحب الحقيقي.

كان قبله ملتعباً بالحب، يحمل الكنيسة على ذراعيه ليقدمها لمسيحه في صلواته المستمرة. وعندما التهبت نيران الاضطهاد زار الإسكندرية ليقدم المعترفين ويشجعهم أثناء محاكمتهم. نزل أيضاً ليقف بجانب تلميذه أثناسيوس، بل بجانب الحق الإيماني في الصراع ضد الأريوسية.

الأنبا أنطونيوس وحياة الخلوة

تلمذة القديس أثناسيوس على يدي الأنبا أنطونيوس قرابة ثلاث سنوات بلا شك سحبت قلبه إلى حياة الخلوة والتأمل. فإن كان الله لم يسمح له بالحياة الرهبانية الديرية أو التوحد، لكنه مارس نسكه في حياته الرعوية - وإذ سمح الله له بالضيق كان يهرب إلى قبر والده أو يختفي في منزل أو يصعد إلى بعض أديرة الصعيد. لم تكن هذه الفترات تمثل ضيقاً، بل تعكس عليه بهجة إذ يحقق أمنيته في الخلوة والتأمل دون تجاهل لدوره الأبوي الرعوي.

الأنبا أنطونيوس وحياة السهر

تدرب البابا أثناسيوس على حياة السهر، ورأى في معلمه رجل صلاة يكرس كل حياته للعبادة. لهذا وجد البابا سروره في الصلاة والسهر. فعندما حاول القائد سيرينوس القبض عليه كان البابا يقود شعبه في خدمة ليلية للسهر. كما أشار كثيراً في كتاباته إلى حياة السهر والصلاة.

الأنبا أنطونيوس والحياة التقوية

إذ ذاق عذوبة الحياة التقوية في عشرينه للقديس أنبا أنطونيوس لم يستطع أن يفصل بين اللاهوت والسلوك العملي، وبين الإيمان والتقوى، فالعقيدة المسيحية في ذهنه تدفع الإنسان ليتمتع بالحياة التقوية في الرب. ومن كلماته:

[الإيمان والتقوى حليفتان وأختان، من يؤمن بالله فهو تقوي، ومن يسلك بتقوى يؤمن بالأكثر³.]

¹ St. Jerome. Letter 68:2 (to Pannonia).

² Tomus ad Antiochenuas, 8.

³ Paschal Letters 11: 9.

✚ ✚ ✚

القديس أثناسيوس وتفاعله مع الفكر السكندري

واجه القديس مرقس الرسول ثلاثة تيارات خطيرة بالإسكندرية، وهي:

- اعتزاز المصريين بما بلغوه من تقدم علمي وفني لايزال يدهش العالم الحديث مثل هندسة المعابد والأهرامات وفن التحنيط والرسم والنحت الخ.
- اعتزاز المجتمع اليوناني السكندري بالفلسفة اليونانية والثقافة الهيلينية التي سادت العالم حتى في أثناء انتشار الإمبراطورية الرومانية.
- اعتزاز المجتمع اليهودي بالإسكندرية بالديانة اليهودية بصورة حرفية، وشعورهم أنهم دون غيرهم شعب الله، مستلمو الشريعة الموسوية وأصحاب الوعود الإلهية، ولهم العهد الإلهي الخ.

كما يشهد القديس جيروم أن القديس مرقس الرسول أنشأ أول معهد مسيحي علمي في العالم، وهو مدرسة الإسكندرية المسيحية، وقد سبق لي إصدار المجلدين الأولين عن مدرسة الإسكندرية، الأول ما قبل العلامة أوريجينوس، والثاني عن العلامة أوريجينوس، وإنني أود أن سمح لي الرب أن أقوم بتكملة هذه السلسلة.

لقد تفاعل القديس أثناسيوس الرسولي مع الفكر اللاهوتي السكندري، فحمل إلي العالم فكر مدرسة الإسكندرية من جوانبه المتعددة.

نظرته اللاهوتية الخلاصية

كان القديس أثناسيوس في كل حواراته اللاهوتية مهتماً بخلّاص الإنسان^١، فكان يؤكد بحرارة أن الله وحده يقدر أن يخلص الجنس البشري الساقط^٢.

في كل مقالاته ضد الأريوسيين ما يشغل ذهنه هو تجديد طبيعتنا بواسطة ابن الله المتجسد: [إن كان من أجلنا قدّس نفسه (يو ١٩، ١٧: ١٨)، وقد صنع هذا إذ صار إنساناً، فمن الواضح أن حلول الروح عليه وهو في الأردن كان حلولاً علينا إذ يحمل جسدنا^٣].

[عندما قيل أنه مُسح بطريقة بشرية (مز ٨، ٤٥: ٧)، فنحن الذين مُسحنا فيه، وهكذا عندما اعتمد فنحن الذين اعتمدنا فيه^٤].

[لم يكن إنساناً صار إلهاً، بل كان الله صار إنساناً ليؤلّهنّا^٥ (نحمل عمله فينا)].

وقد سبق لي عرض الفكر الخلاصي (السوتيرولوجي) في لاهوتيات القديس أثناسيوس، جاء فيه:

١. ما كنا نخلص لو لم يصر الله الكلمة (اللوغوس) إنساناً، فإن الإنسان في حاجة إلى الخالق ليُخلّص طبيعته الساقطة ويردها إلى أصلها، واهباً إيّاها صورة الله، ومصلاًحاً إيّاها من الفساد إلى عدم الفساد، فيه تغلب البشرية الموت ويُعاد خلقتها^٦.

¹ Quasten: Patrology, vol. 3, p. 70.

² G.N.D. Kelly: Early Christian Doctrines, 1960. p. 284.

³ Or. Arians, Disc. 1:47.

⁴ Or. Arians, Disc. 1:48.

⁵ Or. Arians, Disc. 1:39.

⁶ De Incarnatione, 8,9.

٢. لما كان ابن الله واحدًا مع الآب في الجوهر، قدّم نفسه ذبيحة قادرة على الإيفاء بدين خطايانا وتحقيق العدالة والرحمة الإلهية في نفس الوقت.

٣. اللوغوس هو الله غالب الشيطان ليس لأجل نفسه فقط وإنما لأجلنا جميعًا.

٤. بكونه الله الحق أعاد لنا كرامتنا، واهبًا إيانا البنوة للآب فيه بالروح القدس. يقول القديس أثناسيوس: [صار إنسانًا لنصير نحن آلهة^١]. [وإن كان يوجد ابن واحد بالطبيعة، ابن حقيقي وحيد الجنس، صرنا نحن أبناء ليس بالطبيعة والحق بل بنعمته التي تدعونا، وإن كنا بشرًا على الأرض لكننا دُعينا آلهة^٢].

٥. التجسد قدمنا لله، كلمة الله المتجسد يعلن الآب لنا، والآب يجتذبنا نحو الابن (يو ١٧: ٢٦؛ ٤٤: ٦).

بخصوص السيد المسيح^٣ Christology

١. يُعلن القديس أثناسيوس أن تجسد المسيح وموته ليسا عازًا لله بل هما لمجده، صارا سببًا لنعبد الرب^٤.

٢. أخذ ناسوتًا كاملًا، إذ يقول: [لم يأخذ المخلص جسدًا بدون نفس، ولا بدون حواس أو عقل، فإنه لم يكن ممكنًا عندما صار الرب إنسانًا لأجلنا، أن يكون جسده بل عقل، وإلا ما كان الخلاص الذي قدمه الكلمة نفسه خاصًا بالنفس أيضًا مع الجسد^٥].

٣. اللوغوس ليس أداة خارجية لتحقيق الخلق؛ فإن الله ليس في عوز إلى أداة للخلق أو حتى للخلاص. اللوغوس هو واحد مع الآب في الجوهر. [فلو أن الجوهر الإلهي غير مثمر في ذاته بل عقيم كما يقولون، يكون كنور لا يُضيء، وكينبوع جاف؛ أما يخلون من هذا القول عن طاقته العاملة؟!]^٦

الروح القدس

يدافع عن لاهوت الروح القدس في رده على الأريوسيين القائلين بأنه مخلوق أقل من اللوغوس. كما كتب أيضًا عن الروح القدس في أربع رسائل وجهها إلى الأسقف سيرابيون.

لاهوتياته بخصوص الروح القدس هي بعينها كلاهوتياته عن المسيح. يلزم أن يكون الروح القدس هو الله، لأنه لو كان مخلوقًا ما كنا ننال شركة مع الله فيه.

١. يقول: [إن كنا بشركة الروح صرنا "شركاء في الطبيعة الإلهية"^٧ بط ١: ٤... فإن طبيعته هو الله^٧].

٢. يعلن القديس أثناسيوس عن عمل الروح القدس في حياتنا. إنه ينبوع لتقديس الحقيقي، به نتقبل المسحة والختم لنكون شركاء المسيح، شركاء في الطبيعة الإلهية. خلال المعمودية والمسحة ننعّم بالعضوية في الكنيسة به.

الروح القدس هو الذي يعين الأساقفة ليرعوا قطيع الله.

٣. بالروح القدس نثبت في الله: [خارج الروح نحن غرباء وبعيدون عن الله، وبشركة الروح نصير مُسكين في اللاهوت،

¹ De Incarnatione, 54:3.

² Or. Arians, Disc. 3:19.

³ Quosten: Patrology, vol. 3, p. 72-76.

⁴ Or. Arions, Disc. 1:42.

⁵ Tom. Ad Ant,7.

⁶ Or. Arians, Disc. 2:2.

⁷ Ep. ad Serapion 1:24.

حتى أن وجودنا في الآب ليس منا بل من عند الروح الذي فينا ويسكن فينا. فبالاعتراف بالحق نحفظه فينا، وكما يقول يوحنا: "من اعترف أن يسوع هو ابن الله، فالله يثبت فيه وهو في الله" (١٥:٤) [١].

في صراعه ضد الهرطقة كان هدفه واضحاً، إذ كان يتوق إلى خلاص حتى الهرطقة. يقول عنه كواستن: [بالرغم من مقتته الشديد للخطأ، وعنفه في مقاومته، فقد كان يتحلى بسجية يندر وجودها في شخصية كهذه، إذ كان قادراً وسط حماية المعركة أن يسامح ويلطف الذين ضلوا بنية صالحة] [٢].

يقول: [عمل الدين ليس الضغط بل الاقتناع] [٣].

نظرة الكتابية

اختار الشاب أنطونيوس طريق الرهبنة عند سماعه كلمات الإنجيل: "أذهب وبع كل مالك ووزعه على الفقراء وتعال اتبعني" (مت ١٩:٢١). لقد كرس كل حياته ليتم الوصية الإنجيلية. عاش كل حياته لا يملك سوى الإنجيل، مكتوباً لا على ورق بل في داخل نفسه.

جاء تلميذه القديس أنثاسيوس يكرس كل حياته لقراءة الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد والتمتع بعمل كلمة الله فيه. لم يكتب تفسيراً له، ولا كرس حياته للكتاب خلال الفكر الرهباني كمعلمه، لكنه جاءت حياته كتابيه، وجاءت كتاباته كلها تعتمد على الكتاب المقدس، خاصة في حوار مع الأريوسيين.

يقول: [عملات الحق تكون أكثر أصالة إذا استخرجت من الكتاب المقدس عن أن تُستخرج من مصادر أخرى] [٤].

نظرة للكنيسة المسكونية

فتحت مدرسة الإسكندرية أبوابها منذ بدء نشأتها لتضم طلبة من جنسيات مختلفة، فجاء إليها كثيرون يدرسون معاً، ويعيشون معاً، صاروا أساقفة وقادة يحملون روح الحب الحقيقي، وشركة الإيمان الواحد والفكر الواحد.

حمل القديس أنثاسيوس ذات الفكر فآمن بالحياة الكنسية المسكونية التي تقوم على روح الحب مع وحدة الإيمان. فمُنذ شبابه وهو بعد شماس أشارك في المجمع المسكوني الأول، في نيقية عام ٣٢٥ م، حيث وضع قانون الإيمان الذي ترده أغلب الكنائس اليوم. انجذبت أنظار أساقفة العالم كله نحو هذا الشاب بروح الإعجاب، إذ وجدوا فيه قلباً مسكونياً حياً يشتهي الحفاظ على الإيمان الرسولي المسلم للعالم كله. كتب عنه جون هنري نيومان: [هذا الرجل الفائق... هو أداة رئيسية بعد الرسل، سلمت الحقائق المسيحية القدسية وأمنت بالكلمة] [٥]. وقالت ليديا كيسيش: [لو لم يقف أنثاسيوس من أجل إيماننا ربما ما كانت الكنيسة قد صارت ما هي عليه] [٦].

مفهومه للكنيسة كحياة سماوية

تربي القديس أنثاسيوس بالفكر السكندري الممتص دوماً في الحياة السماوية كحياة نختر عربونها في هذا العالم. يرى الكنيسة هي الحياة المقامة في المسيح يسوع، وممارسة للفرح الداخلي، والدخول إلى السماء. يقول عن السيد المسيح: [لقد أقام الساقطين

¹ Or. Arians, Disc. 3:24

² Quasten: Patrology, vol. 3, p. 20.

³ Hist. Arian, 67.

⁴ De Decretis 32.

⁵ Penguin Dictionary of Saints, p. 53.

⁶ L. Kksich : They Walked with God.

وشفى المرضى وأشبع الجياع وسدّ احتياجات الفقراء، لكن ما هو أكثر عجباً أنه أقامنا نحن جميعاً من الأموات، مبطلاً الموت، وأحضرنا من الضيق والأين إلى الراحة وسعادة العيد، إلى الفرحة الذي يبلغ حتى السماء¹].

يرى الكنيسة وقد حملت السمة السماوية تشارك السمايين طعامهم السماوي، إذ يقول: [الرب هو طعام الأرواح الممجدة والملائكة أيضاً. هو فرح كل الطغمة السماوية. هو كل شيء للجميع. إنه لطيف مع الكل حسب حنو رأفته. لقد أعطانا الرب بالفعل طعام الملائكة (مز ٧٨: ٢٥)²].

نظرتة إلى وحدة الحياة الجديدة

من أهم سمات اللاهوت السكندري حتى النسكي هو النظرة إلى وحدة الحياة الجديدة في المسيح يسوع، فالمؤمن إن كان متزوجاً أو راهباً، في دير أو كان متوحداً، في كنيسة أو عمله يحمل حياة واحدة جديدة هي "الحياة في المسيح". هذا ما نلمسه من تصرفات القديس أنبا أنطونيوس حينما التقى بالأخ زكاوس أحد تلاميذ القديس باخوميوس لم يسفه من نظام الشركة كنظام جديد، بل بكل اتساع قلب شجعه، قائلاً: "أنتم جميعكم صرتم كالأب باخوميوس، أقول لكم، أنها لخدمة عظيمة قام بها أن يجمع أخوة كثيرين هكذا، سالكا طريق الرسل"³.

حياة القديس أنثاسيوس الرسولي تكشف عن هذه الوحدة للحياة في المسيح يسوع، فنراه اللاهوتي البارح في الدفاع عن لاهوت الكلمة المتجسد ولاهوت الروح القدس بفكر كتابي حي وقلب ناري متقد. وفي نفس الوقت نراه الراعي الحقيقي، الذي في أبوته لا يهتم بالحوارات اللاهوتية الجافة، بل باللاهوت الخلاصي، حيث يشتاق إلى الدخول بكل نفس إلى خبرة الحياة الجديدة. إنه الرجل الكنسي الذي يهتم بالصلوات الجماعية ويقود بنفسه السهر في التسبيح، وهو الناسك العابد الذي يمارس الحياة النسكية في حجرته الخاصة كما افتقد الأديرة كراهب حقيقي. أينما وجد سواء على كرسي الرعاية، أو في حواراته اللاهوتية، أو في دير من الأديرة أو في المنفى، أو هارباً في مقبرة، أو مختفياً لدى أسرة من شعبه، يحمل الحياة الجديدة التي في المسيح يسوع.

¹ Paschal Letters 6:9.

² Paschal Letters 9:8.

³ Derwas G. Chitty: *The Desert A City*, p.2.

لقطات من حياة القديس أنبا أنثاسيوس

اتسم القديس أنثاسيوس بالشجاعة مع الحكمة وسرعة البديهة، نذكر بعض لقطات تكشف عن شخصيته.

١. إذ حاول الوالي الأريوسي قتله هرب القديس أنثاسيوس في قاربٍ إلى الصعيد. انطلق الجند وراءه في سفينة الوالي التي كانت بلا شك أسرع من الأولى. وإذ اقترب الجند نحو البابا اضطرب رئيس النوتية إذ ظن أن حياة البابا قد صارت في خطر أكيد. لكن البابا في شجاعة وقف على حافة القارب ونظر إلى الجند، وقال لهم: من تطلبون؟" أجابوه: "أنثاسيوس". بكل صدق قال لهم: "أنثاسيوس قريب منكم جداً". فظنوا أنه في سفينة أخرى قريبة منهم فأسرعوا نحو الصعيد جنوب مصر، وعاد هو إلى مدينة خلف منفيس إلى حين، ثم صار ينتقل بين الأديرة في منطقة طيبة.

٢. جاء الأريوسيون بسيدة تشهد في المجمع أنه ارتكب معها الخطيئة وأنها أنجبت منه طفلاً. لم ينطق البابا بكلمة، لكنه أشار إلى تلميذه الذي وقف يسألها: "هل ارتكبت أنا معكِ الخطيئة؟" أجابته: "نعم أنت يا أنثاسيوس". سألها أن تتأكد من شخصه، فأكدت أنه هو الذي ارتكب معها الخطية فشعر الأريوسيون بالخجل إذ انكشف خداعهم وتبرأ البابا أمام المجمع.

حياة البابا أثناسيوس

في سطور

- حوالي ٢٩٧ ميلاده بصعيد مصر .
- ٣١٢ أقيم قارئاً .
- ٣١٨ رُسم شماساً، ثم عُين سكرتيراً للبابا الكسندروس .
- ... تتلمذ على يدي أنبا أنطونيوس لمدة ثلاث سنوات .
- ٣٢٥ سحب البابا في المجمع المسكوني الأول بنيقية .
- ٣٢٨ خلف البابا الكسندروس .
- ٣٣٠ سام أول أسقف على أثيوبيا باسم الأنبا سلامة الأول .
- ٣٣٠ سأل يوسابيوس النيقوميدي الإمبراطور قسطنطين أن يكتب للبابا أثناسيوس لكي يقبل أريوس في شركته . رفض البابا طلب الإمبراطور .
- ٣٣٤١٣٣٣ عُقد مجمع في قيصرية فلسطين، أسقفها يوسابيوس الأريوسي، ورفض البابا المثول فيه .
- ٣٣٥ مجمع صور أتهم فيه البابا:
- قتل أرسانيوس الأسقف الميلاتي .
 - انتهك بتولية عذراء .
 - طلب من وكيله أن يحطم كأس الأفخارستيا الذي كان لاسخيراس المدعى كاهناً . ظهرت برائته لكن حاول الأريوسيون تمزيقه وهرب إلى القسطنطينية، وأصدر المجمع قراراً بعزله في غيبته .
- التقى الإمبراطور بالبابا ورحب به، لكنه غيّر رأيه ونفاه إلى تريف (٣٣٥-٣٣٧) .
- ٣٣٧ مات قسطنطين وأعاد ابنه قسطنطين الصغير البابا إلى كرسيه .
- ٣٣٨ زاره الأنبا أنطونيوس معلناً إعجابه به .
- ٣٣٩ قُتل قسطنطين الصغير ، وأتهم البابا بإثارة قلاقل وفتن سببت سفك الدماء، وأنه منع تصدير الغلال من مصر إلى القسطنطينية .
- أصدر مجمع إنطاكيا قراراً بعزله، وعيّن بستوس الكاهن المحروم ليُدير الكنيسة . ثم سيم غريغوريوس الكبادوكي بالقوة بطريكاً على الإسكندرية .
- هرب البابا أثناسيوس إلى روما، ورحب به البابا يوليوس .
- ٣٤٢ قابل قسطنس إمبراطور الغرب في ميلانو . وأثار البوسابيون قسطنطيوس إمبراطور الشرق بأن البابا طلب من قسطنس أن يعقد مجمعاً لأساقفة الغرب والشرق متجاهلاً إياه .
- ٣٤٣ مجمع سرديكيا أي صوفيا، عاصمة بلغاريا على حدود المملكتين . انسحب الأريوسيون واجتمعوا في فيلوبوليس بتراسيا مقابل سرديكيا، وهي تقع في حدود مملكة الشرق حيث حرّموا أثناسيوس ويوليوس .
- ٣٤٦ عودة الأساقفة المنفيين إلى كراسيهم .
- ٣٥٠ قتل قسطنس على يدي ماجنتيوس .
- ٣٥٣ صار قسطنطيوس إمبراطوراً على المملكة كلها، ودخل في حرب مع ماجنتيوس دامت ٣ سنوات . اتهم الأريوسيون أثناسيوس

أنه كان متحالفًا مع القاتل ماجنتيوس، فأصدر الإمبراطور قرارًا بإدانته خلال المجمعين التاليين.

٣٥٣ مجمع آرل.

٣٥٥ مجمع ميلانو بدعوة من لبيريوس خليفة يوليوس.

٣٥٦ هاجم الدوق سيرانيوس كنيسة القديس أثناسيوس وهرب البابا أثناسيوس إلى البرية (٣٥٦-٣٦٢).

٣٥٧ دخول جورج الكبادوكي الدخيل إلى الإسكندرية مسلمًا الكنائس للأريوسيين. وإذ ثار الشعب هرب ليعود في السنة التالية، فقام بعض الوثنيين بقتله للاستيلاء على ما لديه من أموال.

٣٦٢ صار يوليانيوس إمبراطورًا، وسمح بعودة الأساقفة المنفيين.

عقد البابا أثناسيوس "مجمع المعترفين"، لكن الإمبراطور ثار على نشاطه وأمره بترك مصر، واصفًا إياه كعدو للآلهة. هرب إلى مقبرة أبيه لمدة ستة أشهر.

طلب الإمبراطور من الوالي أن يضع خطة لقتله، فهرب نحو الصعيد في النيل، وإذ اقتربت سفينة الوالي تحدث مع الجند قائلاً إن أثناسيوس ليس ببعيد عنهم، فلم يعرفوه، وفأسرعوا ليلحقوا به وعاد هو إلى مدينة خلف منفيين إلى حين، ثم صار ينتقل بين الأديرة في طيبة.

٣٦٣ قُتل يوليانيوس وعاد الأساقفة من منفاهم. عقد البابا أثناسيوس مجمعًا بعث برسالة إلى الإمبراطور جوفيان يشرح له قانون الإيمان النيقوي. قام بزيارة الإمبراطور الذي رحب به.

٣٦٤ مات جوفيان وعين فالنتيان أخاه فالنس الأريوسي الميول إمبراطورًا للشرق، فنفى كل الأساقفة الذين نفاهم قسطنطينوس.

مايو ٣٦٥ - فبراير ٣٦٦ اختفاء البابا أثناسيوس.

٣٦٩ عقد مجمعًا محليًا لمناقشة قانون الإيمان الأرثوذكسي.

٣٧٣ رقد في الرب.